العصور الوسطى المتأخرة

رأينا فيما سبق كيف عملت الأديرة والمؤسسات الدينية الأخرى على جمع كنوز المخطوطات وتنظيمها على هيئة مكتبات. ورأينا أيضاً كيف أجهد الرهبان أنفسهم في العمل على زيادة هذه الثروة الروحية فكانوا ينسخون النص ويحلونه بالصور الجميلة وبذلك حافظوا على هذا التراث الإنساني وسلموه إلى الاجيال اللاحقة، ففي هذه الفترة كانت المؤسسات الكنسية هي الاماكن الوحيدة الصالحة لوجود تيارات ثقافية من نوع ما . فقد اكتسبت الكنيسة نوعا من حق الاحتكار للتعليم، وأصبحت المعرفة كلها نوعا من النصرانيات كما أصبحت اللاتينية هي لغة الدراسة والبحث في هذه المؤسسات ، ولقد نجد من الصعب علينا أن نقول بأن العلمانيين قد ساهموا بأي نصيب في الحياة الثقافية في ذلك الوقت.

وابتداء من العصور الوسطى المتأخرة بدأ نوع من التغيير يطرأ على الحياة الثقافية. فبدأ العلمانيون في تحرير أنفسهم من وصاية الكنيسة على الثقافة ، وكان من الطبيعي أن تبدأ طبقة النبلاء بهذا التحرير، فاختلقوا نوعا من الحياة الأرستقراطية المتميزة ،قوامها النزعة إلى قراءة الأدب وخاصة الشعر. ثم تلا ذلك ظهور الطبقة المتوسطة في المدن الاوروبية، وكلما انتشرت الصناعة وزادت التجارة اتسعت معرفة الناس بالقراءة أكثر وأكثر وبهذا استيقظت في الطبقة المتوسطة رغبة جامحة في الثقافة والعلم. هذه الرغبة لقيت اشباعها عن طريق الآداب الشعبية ذات الطبيعة نصف العلمية، والتي استغلت اللغات المحلية في تشعبها نحو آفاق أرحب وأوسع.

استقرت الطوائف الدينية الجديدة كالفرنسيسكان والدومنيكان في المدن، ولم تقبع هذه الطوائف في أبراجها العاجية مكتفية بالتأمل في الوجود، بل نزلت إلى زحمة الحياة ترشد وتعظ وتعلم الناس مما أثر في اتجاهات المعرفة، وبمساعدتهم أخذت كبرى الجامعات طريقها إلى حيز الوجود في نهاية العصور الوسطى ومن بينها جامعة بولونياBologana منبع الدراسات القانونية، وجامعة باريس قلعة الدراسات اللاهوتية والفلسفية وهما الجامعتان اللتان أصبحتا مثالاً يحتذى في الدراسات العامة studia generalia في إيطاليا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا. هذه الملاحظات القصيرة فيما يتعلق بالتطور الذي طرأ على الثقافة الغربية يكفي لأغراض تقسيم

موضوعات هذا الفصل، فسوف نحاول الإجابة عن الأسئلة التالية:

أولا – ما المصير النهائي لمكتبات الأديرة؟

ثانيا – ما نوع المكتبات الذي استحدثته الطبقة الأرستقراطية ثم الطبقة المتوسطة؟

وأخيراً– كيف كانت الجامعات تغطي حاجاتها من الكتب؟

ففي ابرشية البندكتيين القديمة ضعفت مع مرور الوقت روح البحث العلمي والديني وبذلك ماتت الرغبة في جمع المخطوطات ونسخها. وحقيقة فإننا نلاحظ في كثير من الأحيان انحلالا تاماً للأديرة وتفككها وبذا أهملت المكتبات فيها ورهنت المخطوطات أو بيعت كلية مقابل أثمان بخسة. وكان لهذا صداه العميق في أحزان دانتيDante التي أطلقها عالية في القرن الثالث عشر الميلادي وفي كتابات ريتشارد دي بريRichard de bury في كتابهPhilobibluon في القرن الرابع عشر، وأخيرا في الوصف المؤثر الذي احتوته كتابات وأوصاف جماعة الانسيةHumanists في القرن الخامس عشر على الرغم من مبالغة هذا الوصف للمصير الذى آلت إليه هذه المكتبات وعلى الرغم من كل هذا يجب ألا نأخذ هذه الاتهامات ببساطة، بل دعنا نستعيد في أذهاننا مجموعات المخطوطات العظيمة التي كانت تقتنيها المؤسسات الدينية والأديرة حتى نهاية العصور الوسطى، وكتب التراتيل العظيمة التي حفظها لنا القرنان الرابع عشر والخامس عشر. لقد وصلتنا عن هذه الفترة بالذات تقارير تكشف عن إعادة تنظيم وبناء المكتبات كما تكشف لنا عن أسماء عدد من أمناء المكتبات المتحمسين من أمثال هنريش فون لجرزHeinrich von ligerz من اينزيدلنEinseiedeln الذي تستحق أعماله في هذا الصدد البحث والدراسة (١). ففي ألمانيا بصفة خاصة حض مجلس مقاطعة كونستانس على إصلاح الأديرة البندكتية، ومهما يكن من شيء فقد كانت نتيجة ذلك إحياء الرغبة في البحث مرة أخرى. وفي الجنوب أصبح دير ميلكMelk المثال الذي احتذته كل من النمسا بافريا وأسوابيا أما في وسط ألمانيا وشمالها فكان المثال هو دير كونغريغيشنCongregation في برسفيلدBrusfeld(٢) وكان قد انشئ في عام ١٤١٣م. وفي حالة هذه الأديرة التي امتدت إليها يد الإصلاح هناك مايشير إلى وجود مكتبات أعدت إعداداً طيباً وزودت بمجموعات من الكتب لا بأس بها.

ويجب ألا نغفل الطوائف الدينية الأخرى في هذا المجال فقد سمعنا على سبيل المثال عن وجود المكتبات لدى الكارثوزيينCarthusians والاوغسطينيين Augustinians وسرعان ما تخلص

(١) Gabriel meier - Heinrich von ligerz, Biblibiothekar von Eiusiedeln im 14. johrhundert. leipzig, 1896.

(٢) دير جمعية الرهبان البندكتين الجدد.

الفرنسيسكان من كراهيتهم للكتب والدراسة فأقبلوا عليها . أما الأقليات الإنجليزية فقد كان لهم نشاط ثقافي ذو نتائج مثمرة. وكانت لهم مجموعات من الكتب القيمة في لندن وأكسفورد ولقد وصلنا سجل المكتبات الإنجليزيةRegistrum Librorum Angliae الذي يرجع إلى القرن الخامس عشر، وهو يشبه إلى حد كبير الفهرس الموحد ويشمل كتب ٨٥ مؤلفا في ١٦٠ مكتبة كنسية وقصد به أن يجيب عن أسئلة أعضاء منظمة الفرنسيسكان [١].. ولقد أقام الدومنيكان وهم المعروفون بالعمل على الصالح العام نظاما للتدريس الأكاديمي وانشأوا المكتبات من وجهة نظر عملية ولم يهتموا بالمظهر الخارجي للمخطوطات بقدر ما كان اهتمامهم بمحتويات هذه المخطوطات وهذا يعكس مبدأهم الأساسي بأن النفعية تسبق الفضول. ولقد وجدنا الأب همبرت دي رومانس Romonis de Humpert الاستاذ الخامس للطائفة (١٢٥٤ - ١٢٦٣م) يخصص قسما كاملاً في تعليماته الرسمية instruction officialium يوجهه إلى أمين المكتبة، الذي كان عليه إيجاد المكان الملائم ، والقيام بتصنيف عملي شامل للكتب ، وإعداد الفهارس ووضع علامات الرفوف على الكتب ووضع لائحة الإعارة والقيام بالجرد السنوي للمجموعة - وأخيراً بناء مجموعات المكتبة- ومنذ القرن الرابع عشر وردت في عدة فصول إشارات خاصة بمكتبات الأديرة ، وفي القرن التالي وضعت اللوائح المكتبية لكل الأديرة الدومنيكانية.

وقبل أن نجيب عن السؤال الثاني وجب أن نذكر كلمة عن المكتبات العربية في أسبانيا لأن هذه المكتبات قد أثرت على نحو ما في مكتبات الغرب المسيحي. وأن الرسالة التي حققها الإسلام بتوصيل الثقافة اليونانية والشرقية إلى أوروبا كثيرا ما يشار إليها. فقد كان جمع وتنمية ثقافة الشعوب المغلوبة جزءا أساسيا في رسالة العرب المنتصرين. ولهذا السبب كانت للكتب والكتابة أهمية خاصة ، وأنشئت المكتبات بكثرة لخدمة هذا الغرض ، ولسوء الحظ لم تلق هذه المكتبات القدر الكافي من الدراسة ولذلك سوف نتعرض هنا لبعض المعلومات القليلة في حرص وحذر.

لقد بدأ البزوغ العظيم للنشاط العلمي والأدبي في العالم الإسلامي حوالى نهاية القرن الثامن الميلادي. ولقد دفع هذا التطور صناعة الورق التي دخلت إلى العالم الإسلامي في ذلك الوقت في الشرق الأقصى، التي هيأت مادة رخيصة لإنتاج الكتب. ويبدو أن مكتبات الإمبراطورية الرومانية الشرقية كانت نموذجا احتذاه المسلمون في بناء مكتباتهم، فكثيرا ما

(١) See Norris, op. cit. 30-34

سمعنا ان هارون الرشيد أنشأ مكتبة في بغداد زودها بمخطوطات من بيزنطة وأماكن أخرى حصل عليها كجزية [1]. ولم يقل ابنه المأمون (ت٨٣٣م)عنه نشاطا في جمع المخطوطات، ويرجع إليه الفضل في دفع المشروع الحيوي لترجمة أمهات المؤلفات اليونانية والشرقية إلى اللغة العربية. ولم تقتصر المكتبات على بغداد فقد وجدت مكتبات أخرى في الكوفة والبصرة.

في الحقيقة لم تخل المساجد الكبيرة ولا الجامعات الاسلامية من مجموعات الكتب الخاصة بها كذلك تشير التقارير إلى وجود مكتبات مماثلة في بلاد فارس، فيذكر أحد الرحالة في نهاية القرن العاشر أنه شاهد مجموعات ضخمة من الكتب في قصر أحد الأمراء البويهيين في شيراز، كما يشير رحالة آخر في بداية القرن الثالث عشر إلى وجود ما يقرب من أثنتى عشرة مكتبة أنشئت في مدينة ميرف.

ولقد نافست هذه المكتبات مكتبات أخرى في الشرق الأدنى في شمال أفريقيا (في القاهرة والإسكندرية مثلا) وأكثر من هذا اسبانيا، ففي ظل الثقافة العربية وجد في شبه جزيرة أيبريا في تلك الحقبة المجيدة ما يقرب من سبعين مكتبة عامة، فقد اشتهر الخليفة الحكم الثالث - (ت٩٧٦) بمكتبته العظيمة التي انشأها وقدم إليها مكتبات أخيه وأبيه ووضعها في قصره في قرطبة، وجمع حوله العلماء والنساخين والمصورين وأرسل البعوث إلى الشرق الإسلامي بغية الحصول على مجموعات كاملة من المخطوطات التي جاءت هناك. وعلى الرغم من وجود بعض المبالغات في عدد المجلدات وحجم الفهارس وبناء المكتبات على وجه العموم، فإن هذا لا يمنع من أن تكون لدينا صورة واضحة عن طبيعة المؤسسات الاسلامية في الوقت الذي لم يعرف فيه الغرب المسيحي سوى مكتبات الأديرة .

لقد اشتهرت مدينة طليطلة Toledo بعد ذلك بكثرة عدد مكتباتها وخاصة بعدما أصبحت مركزاً لترجمة الكتب العربية إلى اللغات الأوروبية . كما اشتهرت مدينة غرناطة Granada بعد ذلك بمكتباتها الغنية. لقد انتشرت موجة حب الكتب بين الأرستقراطية الإسلامية وحتى الطبقة المتوسطة من المسلمين عرفت أيضا بحبها للكتب.

لقد كان لفردريك الثاني امبراطور هوهنزتاوفن Hohenstaufen صلات قوية بالعالم الاسلامي

---

(١) أنظر Ruth S.Machensen = Four great libraries of Medieval Bugdad. Library quarterly,II. 1932, 279, 299

وأنظر أيضاً الفضل الذي ساهم به S.K. padover

في كتاب T.W.Thompson The medieval Library

وكثيراً ما أمر بترجمة الآداب العربية. ومما لاشك فيه أنه كان يرمي من وراء ذلك إلى بناء مكتبة خاصة به . ومهما يكن من أمر فقد كان من أوائل الحكام الغربيين الذين كانت لهم مكتبة كبيرة والتي أوصى بها إلى جامعة بولونيا. أما عن الحاكم العظيم الثاني في القرن الثالث عشر والذي في عهده بلغت الثقافة الوسيطة في فرنسا أوج عظمتها فيذكر صاحب ترجمة لويس التاسع «أنه قد سمع عن سلطان عربي يجد في البحث عن جميع أنواع الكتب التي يحتاج إليها الفلاسفة العرب، فطلب إليه نسخها على نفقته الخاصة ووضعها في مكتبته لينتفع بها الباحثون كلما احتاجوا إلى ذلك [١]. وإلحاقاً بذلك وضع في حجرة المقدسات مجموعة من مؤلفات آباء الكنيسة التي كان يهتم بها وسمح بأن تكون في متناول من يرغب في استعمالها . يمكننا أن نقول بأن لويس هذا هو المؤسس الحقيقي للمكتبة الملكية Bibliotheque وإن كان الجزء الأكبر من فضل إنهائها يرجع إلى العالم فنست Vincent من بوفيهBeauvais كما أمر الملك بإنتاج بعض الأناجيل والمزامير الأنيقة وذلك بقصد وضعها لاستعمال الطبقات الفقيرة ممن لا يقدرون على الشراء. ومن هنا أيضاً نشأت طبقة المخرفين اليدويين Enlumineurs في باريس والتي انتظمت في نقابة جعلت من عاصمة فرنسا مركزاً أوروبيا لصناعة الكتاب.

وفي وصيته وزع لويس التاسع مكتبته على أربع هيئات دينية، ولم يبد خلفاؤه إلا قليلا من الاهتمام بجمع الكتب، ولم يأت التغيير إلا من بيت فالوا Valoi المحب للفنون في القرن الرابع عشر، فقدت ورث شارل الخامس Charles v عن أبيه قليلاً من الكتب عمل على إنمائها عن طريق الشراء، ولكن جزءاً كبيراً جاء عن طريق الإهداء وبهذا تجمع له ما يزيد على ٩٠٠ مخطوط وصفها كريستين دي بيسان Christine de Pisan بأنها «مكتبة نبيل .. تحتوي على أنفس المجلدات التي صنفها مؤلفون أجلاء في كل العلوم، وكتبت بخط جميل، وحليت بأحسن حلية [٢]. وكان شارل نفسه فخوراً بهذه المجموعة، فوضع بخط يده على أكثر مجلداتها علامات تكشف عن ملكيته لها. ولقد أشبعت هذه المجموعة رغبته سواء لأغراض التسلية أو لأغراض القراءة الجادة إذ كان من بين هذه الكتب عدد كبير مترجم إلى الفرنسية، ومن بينها أيضا بعض مؤلفات

---

(١) "Audivit .... de quodam Sarracenorum Soldano quod omniaf librorum genera quae neces-saria esse poterant philophis Sarracenis dililgenter Faciebat inquiri Coptibs suis scribi et in armaiio suo, recond, ut litteroti eorum liborum sumptibus possent hobere, qnoties indigerent" Geobfroy de Beaulies = vita Ludovici Noni, xxii, (Recueil des historiens des Gouleset de la France, xx, 1840.15).

(٢) Lèapol Delisle= Recherches sur la librairie de chaetles v. paris, 1907.

أرسطو وأوغسطين. وفي عام ١٣٦٨/١٣٦٧م نقل الجزء الأكبر من هذه الذخائر إلى أحد أبراج اللوفر ووزع على ثلاث حجرات في حين ظل الجزء الباقي مشتتاً في قلاع عدة ولقد قام ماليه Mallet الذي نال الحظوة لدى لويس، بالإشراف على المكتبة، وقام بجرد مجموعاتها جرداً مفصلا للغاية. لقد كان الملك يعير كتبه للآخرين في سرور بالغ وكم كان يسعده أن يهدي بعضها ، وعلى الرغم من ذلك فقد بقي الجسم الأساسي للمجموعة سليما بل ربما زاد زيادة معقولة في عهد خلفاء شارل، وإن كان الاحتلال الانجليزي في القرن الخامس عشر قد عجل بزوالها (١).

وفي عهد شارل الخامس هذا انتشر بين طبقة النبلاء حب الكتب الفخمة، ولقد احتضن أبناء البيت الملكي على وجه الخصوص هذه الهواية. وكان أبرز حام لمزخر في الكتب وتجارها هو جون دوق بري duke john of Berry أخو شارل الخامس، والذي أنفق مبالغ طائلة واستخدم أحسن الفنانين، ولذا تعد مخطوطاته القوطية وكتبه الجذابة من أجمل ما أنتج المصورون المعاصرون. ونهج دوقات برغانديا Burgundy نهج أسرة فالوا في هذا التقليد حتى نهاية القرن الخامس عشر تقريباً. وقد أبدى الدوق الثالث فيليب الطيب philip the Good رغبته في أن يمتلك «أغنى وأنبل مكتبة في العالم la plus riche et noble librairie de monde فكان يعمل عنده باستمرار مجموعة كاملة من الكتاب والمترجمين والخطاطين والمزخرفين من بينهم الفنان المبدع متعدد المواهب أوبيرت Aubert ولقد حافظت المكتبة البرغاندية على شخصيتها طوال هذه الفترة . ولم تكن مؤثرات عصر النهضة القادمة من إيطاليا ذات تأثير محسوس، فنجد مثلا شارل الجسور الذي كان ينظر إليه كأبطال الأساطير القديمة لا يأبه بها.

وفي القرن الرابع عشر الميلادي كان يوجد في فرنسا مكتبة أخرى فخمة يملكها أحد الامراء، تلك هي مكتبة البابا في أڤينيون Avignon، ولقد كشفت الدراسات الحديثة عن أهمية البلاط البابوي في النواحي الثقافية ، إذ اجتذب الدارسين والكتاب والفنانين وأرباب الحرف من كل البلاد المجاورة، ولقد سبق أن تكلمنا عن نشأة المكتبة البابوية في روما والتي كانت نهايتها مجهولة تماما إذ لم يبق من آثارها سوى قوائم الجرد التي وضعها بونيفاس الثامن Boniface VIII التي جمعت عام ١٢٩٥ وهي القوائم التي اشتملت على ما يقرب من ٥٠٠ مجلد من بينها أكثر من ٣٠ مخطوطة يونانية. وحين انتقلت البابوية إلى أڤغنون ظلت المكتبة في إيطاليا حيث لقيت مصيرها التخريبي. أما فضل بناء المكتبة الجديدة فيرجع إلى البابا جون الثاني والعشرين johnxxII(١٣١٦-١٣٣٤) الذي اشترى أعداداً هائلة من الكتب نماها خليفاه عن

(١) بيعت هذه المكتبة الى دوق بيدفورد في سنة ١٤٢٤ ونقلت إلى انجلترا

طريق النسخ. لقد كان هناك مصدر خصب لتزويد المكتبة بالمخطوطات ذلك هو حق استيلاء الدولة على إرث من لاوريث له the right of escheat ، وتبعاً لذلك فقد كان يؤول إلى الخزانة البابوية ما يخلفه رجل الدين من ممتلكات ومن بينها الكتب، وبهذه الطريقة ارتفع رصيد المكتبة من الكتب إلى ١٥٠٠ مجلد وكانت هذه المجلدات تتوزع بين فئات ثلاثة : المكتبة الأصلية، مكتبة البابا الخاصة، والمخزون ، وكتب هذه الفئة الأخيرة عزلت بقصد تزويد المؤسسات الدينية، ومن وجوه عدة كانت مكتبه البابا الخاصة تشبه في زخرفتها مكتبة شارل الخامس، وفي أڤغنون كانت حركة الترجمة بسيطة والإقبال على القراءة قليلا، بعكس ما كانت عليه الحال في باريس فقد كانت مكتبة السوربون تغص بالمؤلفات اللاهوتية والفسفية - وسوف نتعرض لذلك تفصيلا فيما بعد- على أن مكتبة البابا من ناحية أخرى احتوت كثيراً من المؤلفات القانونية والدينية لإرضاء احتياجات البلاط البابوي.

وفي ذلك الوقت كانت براغ ، واقعة تحت تأثير كل من باريس اڤينيون فقد نجح شارل الرابع بمساعدة رئيس وزرائه جون فون نوماركت johann von Neumarkt أن يجعل بلاطه مركزاً حيا للفنون والعلوم. ولقد ظلت مدرسة براغ رائدة في مجال تحلية المخطوطات في أوروبا الوسطى حتى نهاية القرن الرابع عشر ولم يعدم كثير من الأمراء الألمان من أمثال لودفيج الثالثLudwig III (الأمير المنتخب)، اهتمامهم وحبهم للكتب، إلا أنهم عامة لم يرتفعوا إلى مستوى أندادهم الفرنسيين في هذا الصدد. وعلى العموم يمكننا أن نقرر أن ألمانيا قد فاقت جيرانها الغربيين في تطوير مكتبات المدن فيها.

وفي خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ازداد نفوذ المدينة الألمانية وتبلورت شخصيتها، فشكلت الحياة العامة في ألمانيا في تلك الحقبة، ونشأ بذلك نوع جديد من كتب الطبقة المتوسطة ، جمعت بشغف عظيم. كما حدث حوالى عام ١٣٠٠ بالنسبة للشاعر هيجو فون تريمبرج Hugo von Trimberg مؤلف كتاب Der Renner والذي زادت مؤلفاته على المائتي كتاب. وقرب نهاية الفترة التي ندرسها نجد تقريباً في كل مدينة متوسطة الحجم أنواعا مختلفة من المكتبات لرجال الدين، والبلديات، والأطباء، ونظار المدارس وأيضا لبعض النبلاء وزوجاتهم. ولم يكن يملك الكتب الضرورية في مدارس البلديات التي بدأ إنشاؤها آنذاك سوى المدرسين لحاجتهم إليها. ومن جهة أخرى نصادف في كثير من الأماكن مكتبات البلديات التي قصد بها أن تخدم موظفي المدينة ومحاميها وأطبائها. ومعظم هذه المجموعات تكونت نتيجة لهدايا الأفراد ولم يمض وقت طويل حتى تحولت إلى مكتبات عامة من نوع ما على الرغم من عدم إمكانيه مقارنتها بتلك المكتبات العامة التي خلقتها النهضة الإيطالية والتي سنتحدث عنها في الفصل

التالي فنجد جون فون كير كدورفjohann von Kr ichdorff في عام ١٣٩٩م يوقف منزله وكتبه لاستعمال سكان الزي ALzey كما تبعه في هذا السبيل راعي كنيسة أولم Ulm، نتهارت Nei-thart (المتوفى عام ١٤٣٩) فأوقف مكتبته ، وكانت آنذاك تحت إشراف أسرته للاستعمال العام وخصص لها مكاناً مستقلا قريبا من الكنيسة.

لقد قام النساخون بإغراق السوق بالمخطوطات بما سد حاجة الناس إلى القراءة وكان هؤلاء النساخون في بداية الأمر من رجال الدين وسرعان ما شاركهم العلمانيون في هذا العمل بل فاقوهم في هذا الشأن وفي خلال القرن الخامس عشر انتشرت تجارة الكتب أيضا في ألمانيا. فكانت الكتب تعرض للبيع على عوارض بالقرب من الكنيسة، كما كان المشترون يترددون على أسواق الكتب الكبيرة وخاصة سوق **فرانكفورت** [١]. وفي جنوب ألمانيا قام ديبولت لاوير Diebolt lauber في مدينة هاجناوHagenat بمغامرة جريئة في إنتاج المخطوطات لم تلبث أن أصبحت على قدر كبير من الاهمية . وفي هولندا وشمالي ألمانيا قام « إخوان الحياة للجميع Brothers of theCommon life بإغراق السوق بالكتب، إذ كان مؤسسهم جير هارد جروت Gerhard Grood منذ البداية يوجههم نحو الاهتمام بالكتب فبدءوا أولا في إعداد مكتبات خاصة بهم ثم أخذوا بعد ذلك في إنتاج الكتب للبيع حسب الطلب لتغطية نفقات الخاصة . وكانت كتب التراتيل الكبيرة الغالية، وكتب العبادات الشعبية هي أول ما قاموا بإنتاجه وكان معظمها مكتوباً باللغة الألمانية، وكانت حجرة الكتابة في عهدة الناسخ Scripturarius الذي كان يشرف على المزخرف باللون الأحمر ru-bricator وكاتب الحروف المتداخلةligator كما كان على عاتق أمين المكتبة librarius تقع مهمة الإشراف على المكتبة. وقد نصت اللوائح على تعليمات محددة لكل من هذه الوظائف.

لقد شغل الوراقون Stationariأنفسهم بإنتاج وتسويق الكتب العلمية فكانوا يتواجدون في معظم الجامعات، وأكبر عدد منهم كان يوجد في باريس مما جعل ريتشارد دي بري Richard de Bury يصف سوق الكتب هناك بأنه «الجنة الزاخرة بكتب الدنيا Virens viridarium universorum Voluminum لقد كانت تجارة الكتب لإمداد المدرسين والطلبة بالكتب الضرورية للكليات أو قاعات الطلبة، تلك المعاهد ذات الصبغة نصف الدينية والتي أسست في معظم الجامعات على شاكلة المعاهد الدينية التي أقامها الفرنسيسكان والدومنيكان.

---

(١) انظر المقدمة التاريخية التي كتبها ج. و. طومسون في معرض فرانكفورت للكتب Frankfort Book Fair Chicago, 1991.

وهو ترجمة لكتاب: Henri Estienne = Francofordiense Emporium

وفي باريس كانت تخضع لرقابة صارمة من جانب السلطات الجامعية. ومن ناحية أخرى – وهذا يقودنا إلى سؤالنا الثالث – لم تشغل هذه السلطات نفسها بإقامة مكتبة جامعية، وذلك أن جامعة باريس شأنه شأنا كل الجامعات المبكرة لم تتقدم دفعة واحدة بل كان نموها بخطى وئيدة كبقية المعاهد التربوية المختلفة (١).

وحوالي عام ١٤٥٠م أسس روبرت دي سوربون Robert de Sorbonne راعي كنيسة لويس التاسع، الكلية التي حملت اسمه والتي أصبحت الآن أشهر من أن تذكر، وأهدى إليها مكتبته الخاصة وتدفقت عليها الهدايا بعد ذلك في سرعة هائلة وأعداد كبيرة مما جعل مكتبة السوربون تفوق إلى حد كبير المكتبات الأخرى في جامعة باريس وكانت الهدايا التي تأتي إليها لا تقل عن مائة مجلد وأحيانا تصل إلى الثلاثمائة مجلد، وكان من بين المتبرعين ألمان وانكليز وإيطاليون وأسبان. وجرت عادة بعض المؤلفين على أن يودعوا أصول مؤلفاتهم في مكتبة السوربون. أما المال اللازم لشراء المخطوطات فكان من الممكن الحصول عليه من الأوقاف التي كانت توقف على المكتبة أو من بيع النسخ المكررة. وفي عام ١٢٩٠ بلغ رصيد المكتبة أكثر من ألف مجلد، ، وفي عام ١٣٣٨م قفز هذا الرصيد إلى أكثر من ألف وسبعمائة مجلد، وكانت كتب اللاهوت والفلسفة تشكل القسم الرئيسي من هذه المجموعة. وكان أصدقاء الكلية يحملون مفاتيح المكتبة لاستعمالها إن شاءوا في حين كان لا يسمح لباقي الأعضاء بالجامعة بالدخول إليها إلا بشروط خاصة. على حين كان الغرباء في حاجة إلى من يصحبهم إلى المكتبة. ولقد قسمت المكتبة إلى قسمين الكبير magna: والصغير parva وفي القسم الأول كانت توضع المخطوطات مربوطة على ستة وعشرين درجا لاستعمالها داخليا فقط. واحتوى القسم الثاني على المخطوطات المكررة والمواد التي لاتستعمل إلا نادراً وكانت هذه المواد غالباً ما تعار للخارج ولفترات طويلة نسبياً نظير رهن كان في الأعم الأغلب عبارة عن كتاب آخر. وكانت الوظائف الإدارية المتعددة تتوزع بين أصدقاء الجامعة. وبالإضافة الى السوربون أنشئ في باريس حتى نهاية العصور الوسطى ما يقرب من خمسين كلية، وكان لكل منها مكتبتها الخاصة كبرت أم صغرت.

ولم يختلف تنظيم هذه المكتبات أساساً عن تنظيم مكتبات الكنائس والأديرة وحتى قاعات الكلية أنشئت على نمط هذه المكتبات الكنسية. ولكننا بمقارنة هذه المكتبات الكنسية. بمكتبات العصر السابق نجد أنها كانت تتجه أساساً إلى خدمة المعرفة ومعاهد الدراسة بطريقة عملية أكثر من ذي قبل. ولذا نجد الدراسات الأكاديمية بالجامعة، والتي لعب الدومنيكان دوراً كبيراً

(١) انظر العمل الذي انجزه: Rashdall and Schachner, op. cit

فيها، تفرض نوعا أفضل من التنظيم لهذه المجموعات ، وقد ربط هذا التنظيم بنظام التدريس الفعلي في الكليات والمعاهد التي تطورت كثيراً عما كانت عليه في العصور الماضية وذلك على يد كاسيودورس Cassiodorus و إزدور lsidor حتى الكوين Alcuinورابانوس ماوروس Rabonus Maurus, هذا التطور الذي كان وليد الظروف في القرن الثالث عشر وكشف عنه عرضياً في طريقة تصنيف الكتب رسخ الآن كمبدأ أساسي. ولم يكن أمناء المكتبات جامدين يطبقون الخطة الموضوعة بحذافيرها بل كانوا يعدلونها حسب الظروف ، فيضيفون أقساماً جديدة إذا اقتضى نمو المجموعة ذلك . وكانت الأقسام المختلفة كقاعدة، توضع متساوية الرتب قسما بعد آخر ولم تكن تقسم إلى شعب تتبعها أقسام وفروع وهو النظام الذي عرف لأول مرة في القرن السابع عشر تقريباً.

ومن الصعب أن نصل إلى نتيجة عامة فيما يتعلق بطريقة حفظ المخطوطات، وذلك لوجود اختلافات بينة بين بلد وآخر وطائفة وأخرى . كما أن الإشارات إلى هذا الموضوع من الغموض وعدم الدقة بحيث تفهم . وعلى الرغم من وصول كثير من مكتبات الكنائس والكليات إلينا، فإن ترتيبها قد تغير عما كانت عليه كلية، وكل ما أملك أن أقوله هو : إنه بالإضافة إلى الطريقة القديمة التي قضت بوضع المخطوطات في خزانات ،بدأ في أواخر العصور الوسطى نظام جديد يقضي بوضع المخطوطات على أدراج lectern System الذي يبدو أنه أخذ ينتشر أكثر وأكثر، وتبعاً لهذا النظام كانت المكتبة تشتمل على صف من المناضد لكل منها عدد من الرفوف توضع عليها الكتب مربوطة إلى قضبان حديدية [1] وكانت هذه المناضد والرفوف والمخطوطات تأخذ علامات معينة بالحروف أو الأرقام (كل منضدة بما عليها من رفوف ومخطوطات تأخذعلامة واحدة) وبجانب هذا كانت الكليات تتمايز في الألوان، وكانت قائمةالجرد تشبه إلى حد كبير قائمة الرفوف، كما كان يوجد بجانبها في بعض الأحيان كشافات هجائية وحينما تكون هذه القائمة مكتملة البيانات الوصفية وكان المجلد الواحد يشتمل على بيانات عن عناوين المؤلفات ، والاستهلال والختام، وعلامة الطابع ومصدر المخطوطة وثمنها ، وفي بعض الأحيان كان يضاف إلى ذلك نوع الخط وطريقة الصناعة بصفة عامة.

وكان يوجد في جامعات إيطاليا - بطبيعة الحال - كما كان بجامعة بولونيا مكتبات لم تكن

---

(١) من أجل دراسة مفصلةوإيضاحات جيدة انظر :

B. H. Streeter = The Chained Libnary. bibrary. London, 1931.

على قدر كبير من الأهمية ، ربما لأن الوراقين أقاموا نظاماً للاعارة واسع النطاق. وكان الأمر يختلف عن ذلك في ألمانيا، فقد أسس شارل الرابع عام ١٣٦٦ في براغ أقدم جامعة «الجامعة الكارولينية Collegium Carolinum ، وأمدها بكميات كبيرة من الكتب. وعندما أنشئت كلية الأمة البوهيمية بعد هذا التاريخ ألحقت بها مكتبة لا بأس بها، ووجدت أيضاً مكتبات مشابهة في قاعات الكلية في الجامعات الأخرى المعاصرة، ومن بين هذه الأعداد نذكر بصفة خاصة مكتبة المعهد الذي أسسه أمبلنيوس من ايرفورت Amplonius of Erfurt (المتوفي ١٤٣٤/١٤٣٥) الذي كان عالما وجامعا ممتازاً للمخطوطات، وقد بقيت مخطوطاته إلى اليوم تعتبر أنفس مقتنيات المكتبة هناك، ولو أن الأمور في ألمانيا سارت سيرتها في فرنسا لأحرز الألمان قصب السبق في إنشاء مكتبات الكليات، كما حدث حين أنشأوا في وقت مبكر كلية الآداب ، وكان ذلك أولا في يلبرج Heidelberg سنة ١٣٨٦ ، وبعد هذا التاريخ مباشرة أنشئت مكتبة عامة واحدة لكل الكليات.

وفي إنجلترا مهد توماس كوبهان Cobhan Thomas ، أسقف ووستر Worcester الطريق لإنشاء مكتبة عامة للجامعة في أكسفورد في تاريخ مبكر هو عام ١٣٢٧. ولكن نظراً لوجود بعض الصعوبات لم تبدأ هذه المكتبة الجامعية عملها رسميا إلا ابتداء من سنه ١٤١٢. لقد وصلتنا عدة تقارير عن وجود مكتبة عامة للجامعة في كمبردج منذ بداية القرن الخامس عشر، ومن ناحية أخرى كانت هناك مكتبات لبعض الطوائف الدينية والكليات التي يعتبر إنشاؤها مبكراً إلى حد ما.

لقد قام ريتشارد دي بريRichard de Bury(المتوفى ١٣٤٥) بتخطيط الجزء الأكبر من مشروع اكسفورد بالرغم من عدم تحقيقه على أيامه. لقد كان ريتشارد هذا المعلم الخاص لإدوارد الثالث Edward III وأخيراً توصل إلى منصب أسقف دورهام Durham وقاضي قضاة انجلترا، وقام بعدة رحلات إلى القارة الأوروبية على رأس بعثات دبلوماسية هامة، ولا يعتبر دي بري أحد الباحثين الممتازين فحسب، بل إنه يعد أيضا أحد محبي الكتب المخلصين في أيامه، فجمع حوله - كأمراء فرنسا - المزخرفين والنساخ، والمراجعين والمجلدين، وتعامل مع بائعي الكتب في فرنسا وألمانيا وإيطاليا، وأنفق المال بسخاء مدهش كلما زار سوق الكتب في باريس، وللرد على كثرة ما وجه إليه من هجوم بسبب حبه للكتب ألف كتابه philobiblion الذي يقرأ حتى اليوم بلذة فائقة. فهو يضمن هذا الكتاب نشيداً عذباً في مدح الكتاب، فعلي من قدره بوصفه منبع الصاق الأبدي ونور النفس الصادقة وسلاح الله يمنحه للقضاء على الهراطقة. وعنصر التشويق في هذا الكتاب إنما يتأتى من أنه تضمن نظرية مكتبية في غاية الأهمية ليست مسوح العصور الوسطى، وفوق كل ذلك يحمل هذا الكتاب تصويراً دقيقاً لشخصية مؤلفه ونشاطه الدائب في جمع المخطوطات.